ضرر المطابع

لا وردَ بلا شوك ولا نفع الاَّ ومعهُ شيءٌ من الضر. ومن شأن المضار انها تزيد وتنمو مع المنافع كما ينمو الشوك والقراص في الارض المحروثة المعدَّة للزرع. يعلم ذلك اهل الزراعة فيقربون النبات الذي يزرعونهُ بعضهُ من بعض حتى لا يبقى مجال للاعشاب الضارَّة واذا نمت رغماً عنهم واظبوا على استئصالها لئلاَّ تقوى وتخنق زرعهم. وعلى الذين يهتمون بمصالح العباد وتوفير المنافع لهم ودفع المضار عنهم ان يفعلوا مثل ذلك بما ينمو بين الناس من الشرور والمضار حيث يُنتظر نمو الخيرات والمنافع. ويصدق هذا بنوع خاص على المطابع ونشر الكتب فان الناس يؤلّفون من الكتب النافع والضار والمصلح والمفسد والسمين والغث فلما كان نشر الكتب موقوفاً على اقلام الكتَّاب كان انتشار المنافع قليلاً وكذلك انتشار المضار. اما وقد كثرت المطابع وسهل طبع الكتب ونشرها فصار انتشار الكتب الضارَّة ميسوراً لاسيما وان جمهور العامة اميل الى الخرافة والاوهام منهم الى العلم والحقائق

يغنينا عن الاسهاب في هذا الموضوع ما اظهرهُ احد الادباء بالاحصاء من انهُ لا يطبع كتاب علمي مفيد في هذا القطر حتى يطبع فيهِ عشرون رواية واكثرها مما لا فائدة من مطالعتهِ وبعضها يفسد الاذواق والاخلاق. وهذا الداء منتشر في البلدان الاوربية اكثر مما هو منتشر عندنا لكنَّ الاوربيين لم يغفلوا عنهُ بل احتاطوا لهُ وتراهم يعالجونهُ على اساليب شتى فعندهم الانتقاد المحص في الجرائد والمجلاَّت وعندهم الجمعيات العلمية والادبية حيث تذاع العلوم والآداب ولا يخلو بلد من بلدانهم من مدارس يتهذَّب فيها العقول ومكاتب تتوسع فيها المعارف. وعندهم ما لا يحصى من الصحف العلمية والادبية ينشئها كبار العلماء الذين لا يذكرون الاَّ الحقائق وهي رخيصة الثمن لكثرة ما يطبع وينشر منها فيسهل على كل احد الاشتراك فيها. هذه المزايا كلها تقاوم انتشار المضار والاضاليل او تمحو اثرها من النفوس

ولو كانت شكوانا من الروايات السمجة وكتب المجون لا غير لهان الامر لان هذه الكتب تُعرَف من عنوانها فلا يطالعها من يضنُّ بوقتهِ او يكرهُ ان يرى الفاحشة بعينيهِ. لكننا نشكو ايضاً مما تخفى مضارهُ على العامة وقد تخفى على بعض الخاصة. نشكو من الكتب التي تُنشَر لابسة حلة العلم ونظهر عليها دباجة التحقيق وفيها من السخائف والخرافات ما يزيد ظلمة العقول ظلمة ويرسخ الاوهام في النفوس

وقد كنَّا نرى هذه السخائف في الكتب العربية القديمة التي طُبعت قبل انتشار المعارف

الحديثة فنود ان يعاد طبعها وتضاف اليها حواشٍ يُذكر فيها صريحًا ان هذا كان اعتقاد القدماء اما الآن فانتقض وثبت ما هو كذا وكذا كما فعل اليسوعيون ببعض الكتب التي طبعوها . اما الكتب القديمة التي لم تطبع قبلاً وطبعت الآن اول مرة فلا عذر لطابعيها اذا لم يعقّبوا عليها بما يصلح خطأها ويقوّم اودها ولاسيما اذا كان ما فيها من الخطإ واردًا مورد الحقائق العلمية . مثال ذلك ان الامام القزويني ذكر في جملة ما ذكره في كتابهِ عجائب المخلوقات ان الجراد " اذا رعت ايام الربيع طلبت ارضًا طيبة التربة رخوة ونزلت هناك وحفرت باذنابها حفرًا وباضت فيها كل واحدة مئة بيضة الاَّ بيضة وطارت وآفتها الطيور والبرد ثم اذا اتت ايام الربيع واعتدل الزمان ينقص ذلك البيض المدفون ويظهر مثل الذباب الصغار على وجهِ الارض الخ "

ومفاد ذلك ان الجرادة تبيض ٩٩ بيضةً في الربيع في الارض الطيبة التربة الرخوة وتبقى حية وتبقى بيضها في الارض الى الربيع التالي فينقص. وينتظر من علماء العرب ان يكونوا على معرفة تامة بطبائع الجراد لكثرتهِ في بلادهم . وقد رأينا الجراد مرارًا في بلاد الشام فوجدناهُ يبيض في الارض الرخوة التربة والصلبة التربة وكثيرًا ما يفضل الثانية على الاولى فبيض على الطرق المطروقة في الاراضي الزراعية ويموت بعد وضع بيضهِ في الارض وينقص بيضهُ وتظهر صغارهُ بعد ايام قليلة من اسبوعين الى ثلاثة . والظاهر ان الامام الدميري اراد ان يصلح ما قالهُ القزويني فبالغ واخطأ قال "واذا اراد الجراد ان يبيض التمس لبيضهِ المواضع الصلدة والصخور الصلبة التي لا تعمل فيها المعاول فيضربها بذنبهِ فتنفرج لهُ فيلقي بيضهُ في ذلك الصدع" ثم ملأ ثلاث صفحات كبيرة بما لافائدة علمية منهُ لكنهُ ألبسهُ حللاً دينية حتى يضطر القارىء ان ينظر اليهِ بالتوقير ولو كان عقلهُ لا يسلم بكثير منهُ

وقد يُلتمَس عذر للقزويني والدميري وامثالهما بان ذلك كان مبلغ ما وصل اليهِ علمهم والذين طبعوا كتبهم منذ بضعة عشر عامًا حين لم يكن من يبحث او من يمحص. ولكن اي عذر يلتمس لمن ينشر اليوم كتابًا لاخوان الصفا يقال فيهِ ما نصهُ " ان الجراد اذ سمنت ايام الرعي في الربيع طلبت ارضًا طيبة التربة رخوة الحفر ونزلت هناك وحفرت بارجلها ومخالبها وادخلت اذنابها في تلك الحفرة وطرحت فيها بيضًا ودفنتها ثم طارت وعاشت اياماً ثم اذا جاء وقت موتها اكلتها الطيور وماتت ما بقيت وهلكت من حرّ او بردٍ او ريح او مطر وفنيت ثم اذا دار الحول وجاءت ايام الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء نشأ من تلك البيضة المدفونة في الارض مثل الديدان الصغار ودبت على وجه الارض واكلت العشب والكلأ الخ . ففصّل

مؤلفو هذا الكتاب ما ذكرهُ القزويني لكي يزيدوهُ خطأً وخطلاً

وذكر القزويني دودة القز فاصاب في وصفها قال هي " دويبة اذا شبعت من الرعي طلبت مواضعها من الاشجار والشوك ومدّت من لعابها خيوطاً دقاقاً ونسجت على نفسها كنًّا مثل الكيس ليكون حرزاً لها من الحر والبرد والرياح والامطار ونامت الى وقت معلوم اما كيفية اقتنائها فمن عجائب الدنيا وهي انهم اول الربيع يأخذون البزر ويشدونهُ في خرقة وتجعل تحت ثدي المرأة لتصل اليهِ حرارة البدن الى اسبوع ثم ينشر على شيء من ورق التوت المقصوص بالمقراض فتتحرك الدودة وتأكل من ذلك الورق " الى ان قال " واذا فرغت الدودة من عمل الفليجة عُرضت على الشمس لتموت الدودة فيها ويحصل من الفليجة الابريسم ويترك بعض الفليجة ليثقبها الدود ويخرج ويبيض ويبضها يحفظ للسنة الآتية "

اما اخوان الصفاء فقالوا في كتابهم " ان دود القز تكون على رؤوس الاشجار في الجبال خاصة شجر الغضا والتوت فانها اذا شبعت من الرعي ايام الربيع وسمنت اخذت تنسج على نفسها من لعابها في رؤوس الاشجار شبه العش والكن ثم تنام فيها اياماً معلومة فاذا انتبهت طرحت بيضاً في داخل الكن الذي نسجت على نفسها ثم ثقبتها وخرجت منها وسدّت تلك الثقب وخرجت [illegible] وطارت فتأكلها الطيور او تموت من الحر والبرد او المطر ويبقى ذلك البيض في تلك الحرزات محروزاً ايام الصيف والخريف والشتاء من الحر والرياح والامطار الى ان يحول الحول وتجيء ايام الربيع ويحضن ذلك البيض في الحرزات ويخرج من تلك الثقب مثل الديدان الصغار وتدب على ورق الاشجار ". ومفاد ذلك ان دود الحرير يبيض في فلائحهِ ويسدها بعد خروجهِ منها وهذا تخالف لما ذكرهُ القزويني وتخالف للواقع لان الفراش يخرج من الفليجة ويبيض على خريطة يحفظ البزر فيها الى الربيع التالي

وقس على ذلك قولهم عن لسان زعيم النحل ان الذباب والبق والبراغيث والديدان وما شاكلها لا تبيض ولا تحضن ولا تلد. وقولهم ان الزنابير تموت ثم تعيش ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى ويخالف الحقائق المقرَّرة في علم الحيوان

ولم نخص هذا الكتاب بالذكر لان فيهِ من الغلط ما ليس في غيرهِ بل لانهُ اتفق اننا نظرنا فيهِ قبل كتابة هذه السطور. وقلما يقع نظرنا على كتاب قديم من الكتب التي تطبع حديثاً الاَّ ونرى فيهِ شيئاً كثيراً مما يخالف الحقائق المقررة تاريخيَّة كانت او علميَّة او اديبيَّة حتى لقد نصوّب ما قالهُ المغفور لهُ السيد جمال الدين الافغاني وقد قيل لهُ ان استنباط طريقة جديدة لرسم الحروف العربية يفقدنا كل الكتب العربية القديمة فقال " اذاً لا نفقد شيئاً "

والغالب ان يتقي المؤلفون سهام الانتقاد والتخطئة باسوار من الآيات الكتابية والعقائد الدينية حتى يعسر على من يريد احقاق الحق الدنو منهم فيقولون مثلاً " ان الذباب يتولد من الطين بقدرة الله تعالى وهو على كل شيء قدير " و" ان الزنابير تموت وتبقى جثثها كل ايام الشتاء يابسة تعلمنا يقيناً بالمعاد وان الله منشئها ومعيدها في العام القابل كما انشأها اول مرة فاذا انقضى الشتاء وجاء الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء نفخ الله تعالى فيها روح الحياة فعاشت ونبت البيوت وباضت ". فاذا خالفتهم بقولك ان الذباب لا يتولد من الطين بل من بيض باضهُ ذباب آخر قبلهُ وان الزنابير لا تموت ثم تعيش بل تشتواي تنام نوماً ثم تستيقظ سهل عليهم ان يرشقوك بالالحاد. وبمثل ذلك يفسد العلم او تضعف العقائد الدينية

ويا حبذا لو اهتم ناشرو الكتب القديمة بتعليق الحواشي عليها اذا كان لا بدَّ من نشرها او حبذا لو بذلوا همتهم في تنشيط المترجمين والمؤلفين على نشر كتب جديدة مما ينطبق على المعارف العلمية الحديثة لان الاعتماد على القديم لا يفيدنا اكثر مما افاد اسلافنا بل قد لا يفيدنا كما افادهم اذ نحن نناظر الآن اقواماً لم يكونوا يناظرونهم فاذا لم نحاضر مثل هؤلاء الاقوام ولم نسعَ سعيهم قصرنا عنهم كثيراً وكرَّت القرون ونحن في ساقة الامم

صيد الاسد

اقبل الاوربيون على افريقية بخيلهم ورجلهم يقصدون تدويخها شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً فلم يلقوا مقاومةً من الانسان قدر ما لقوا من الحيوان وافتكهُ بهم تلك الميكروبات الصغيرة التي تضني ابدانهم ولا تبقي على كبيرٍ ولا على صغير لكنَّ فتكها بخفي لا يتحدَّث بهِ الناس كما يتحدثون بفتك الضواري ولا ترهبهُ النفوس كما ترهب فتك الاسود

كتب بعضهم الى جريدة العالم الانكليزية يصف هجوم الاسد على ثلاثة من الاوربيين في طريق اوغندا في السادس من شهر يونيو الماضي قال كان المستر ريال معاون البوليس سائراً في مركبتهِ على طريق اوغندا وكانت المركبة متصلة بقطار سكة الحديد التي هناك فالتقى برجل اسمهُ هبنر وآخر اسمهُ باژنتي حتى اذا وصل القطار الى محطة كيما على ٢٥٥ ميلاً من اول الخط رأى اسداً كبيراً وشبلين قرب المحطة وكان من مهرة الصيادين ففصل مركبتهُ عن القطار ودعا الرجلين اليها ليبيتوا فيها ويقوموا في الصباح الى صيد الاسد ثم يصلوها بقطار آخر يمرُّ من هناك بعد الظهر فاجاباهُ الى ما طلب ففصل المركبة عن القطار ودفعها الى تحويلة بجانب